فصل من رواية «الجدّ والحفيد» لنيروز مالك

هذا فصل من رواية أعادتها رقابةُ اتّحاد الكتّاب إلى مؤلّفها، ناصحةً إيّاه «بعدم تقديمها وتضييع الوقت».

شَعَرَ بالاختناق عندما استيقظ. كان ممدَّدًا فوق البطّانيّات، أمّا رأسُه فعلى الأرض. قام جالسًا. أدار نظرَه حوله بعجز. كان الألمُ حاداً في عنقه. حَرَّكَ رقبتَه بحركةٍ ليّنةٍ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال وهو يهدّئ نفسه: لا عليكَ. يجب أن تتمالَكَ أعصابكَ، وأن لا تَتْركَ الخللَ النفسيَّ يدبّ في أوصالك. واعلمْ أنّه إنْ دبّ الخللُ فلن يكون لك الخلاص. ستَنْهار. عليك بالتماسك لكَيْ تفكّر بهدوء. قد تَقْضي أيامًا وربّما شهورًا في هذه المنفردة.

زَفَرَ هواءً كظيمًا وأغمض عينيْه. حاول أن يَهْدأ، ثم راح يَعُدّ من الواحد إلى..

ظلّ يعدّ إلى أن أخطأ، بعد أن شرد قليلاً بسبب منظر طبيعيّ اقتحم خيالَه. مَرَّ المنظرُ أمام عينيْه المغمضتيْن بسرعة خاطفة كأنّه مهرٌ جميلٌ أبيض.

كان قد وصل في عدّه إلى الثلاث مائة وستين أو خمسة وستين.

حاول أن يتذكّر ولكنّه فشل. ابتسم وقال لنفسه: عُدْ إلى البداية. إبدأْ من الواحد. حاولْ أن تُمْسك بعنق كلّ رقمٍ تَعُدّه قبل أن تترك ذيلَ الرقم الذي قبله.

وابتدأ العدّ من جديد.

واحد، اثنان، ثلاثة.

فشل مرةً ثانية، عندما وصل في عدّه إلى المائة والثلاثين، في أن يكمّل. لم يَعْرف إنْ كان قد عدّ رقمَ الثلاثين أم لا.

قال: على ما يَبْدو لن تستطيع أن تُنْجز ما تريد إنجازه.

شعر بهدوء في نفسه إثر إعلانه عن عجزه. فعاد يفكّر بألمِ عنقه من جديد. لو كانت هناك وسادة يضعها تحت رأسه لَمَا شعَرَ بالألم.

طبعًا كان أمامه حلٌّ بسيطٌ لمشكلته، وهو أن يلفّ إحدى البطّانيّات ويجعل منها وسادة. إلاّ أنّه لا يَسْتطيع أن يَسْتغني عن إحداها، لأنّه إنْ فعل فسَيفقد جسدُه نصفَ الدفء الذي يحسّ به؛ فالأرض من البلاط، والبطّانيّتان اللتان يمدّهما على الأرض لا تكادان تحميانه من برد البلاط. أمّا البطّانيّتان الأُخريان اللتان يَلْتحف بهما، فهما بدورهما لا تقيانه وقايةً تامةً من البرد. فكيف إذا تخلّى عن واحدة، سواء كانت من اللتين يمدّهما على الأرض، أو من اللتين يَلْتحف بهما؟

عاد وزفر من جديد. وحاول أن يهدأ.

وقع نظرُه بصورة فجائيّة على فردتيْ حذائه. نَظَر إليهما طويلاً. وما لبث أن ابتسم، ثم ضحك وقال: كم أنا غبيٌّ! كيف لم أفكّر في أن أجعل منهما وسادة؟ كنتُ مرةً أضع راحتيْ يديّ واحدتهما على الأخرى تحت رأسي، ومرةً أَشْبك يديّ وأنا أتمدّد على ظهري لأُسند بهما قحفَ رأسي، ومرةً ثالثة أُكوِّر عضديّ لأجعل منهما وسادة ـ ولكنّ الخدر كان ما يلبث أن يسري إلى يديّ، وبعد فترة يسري الألمُ إليهما، فأرفع يدين لا أحسّ بهما كأنّي فقدتُهما.

مدّ يديه وتناول الحذاءَ ليضع فردتيْه الواحدةَ فوق الأخرى، جاعلاً منهما وسادةً صغيرة. ابتسم بسعادة وقال: ها هي إحدى مشاكلي قد حُلّت. ثم أضاف: لا مشكلة.

تمدّد بعد أن سَحَبَ البطّانيّتيْن فوقه، ووضع رأسَه على الوسادة التي ابتكرها لتوّه.

صحيح أنّ الوسادة كانت صلبةً، وصغيرةً على رأسه بحيث لا يستطيع تحريكَه بحرية. إلاّ أنّه ارتاح إلى الحلّ.

سَمع صوتًا كان صوتَ فَتْح الكوّة الصغيرة في الباب الحديديّ لمنفردته، والسّجانُ يَصْرخ أن يقف كلُّ مسجونٍ أمام الباب ليتناول منه العشاء. رفع رأسه.

كانت هناك جلبةٌ في الممرّ، وصوتُ السجان يعلو شاتمًا السجينَ في المنفردة الأولى، لأنّه لم يره واقفًا أمام الكوّة ليتناول منه طعامَ العشاء. كان يقول: أتريد أن نُدْخل شخصًا آخر إلى «قصرِكَ» لينوب عنكَ في أخذ الطعام مني؟

عندما سمع هذا التأنيبَ قَفَزَ من مكانه ووقف إلى جانب الكوّة. كان قد قرّر منذ دخوله السجنَ أن لا يَسْمح لأيٍّ كان أن يقول له كلمةً نابيةً. كان قد قرّر أن لا ينسى شكلَ العلاقة بينه كسجين وبين السجّان.

أطلّ وجهُ السجّان عليه وقال له: أنت جديد، أليس كذلك؟

أجابه: يعني..

سأله السجّان: هل لديك خبز؟

أجابه: كلا.

قال له: خُذْ طعامك. سأجلب لك حصّتك من الخبز.

ومضى.

وضع القصعةَ البلاستيكيّة أمامه وجلس مقرفصًا فوق البطّانيّات، وراح يتأمّل طعامَ العشاء. حاول أن يعرف أيّ نوع من الطعام هو؟ حاول أن يعرف ذلك من الرائحة، ولكنّه فشل. كان ماءً، يميل إلى الصفرة، يتصاعد منه بخارٌ في حلقات صغيرة شفّافة. سأل نفسَه: كيف يُمْكن أن يَأْكل هذا الطعام؟ حتى لو حاول أن يأكله، فكيف يَفْعل؟

مدّ السجّان له ببعض الخبز قائلاً: خذْ. هذه حصتكَ اليوميّة.

تناول الخبز من السجّان، وعاد ليجلسَ أمام القصعة البلاستيكيّة التي يستقرّ فيها عشاؤه ـ أو ما يسمّى بالعشاء.

كان الخبز ضِمْن كيس من البلاستيك الشفّاف الطريّ. وضعه جانبًا مُسْندًا ظهرَه إلى الحائط، وهو يفكّر في حلّ للمشكلة الجديدة التي وجدها أمامه. كيف له أن يأكل هذا المرقَ الأصفرَ وليست لديه ملعقة، أو أيُّ أداة يمكنه أن يتناول بها طعامَه؟

وبعد تفكير طويل أَبْعَدَ الطعامَ من أمامه بعد أن أَقْنع نفسَه بأنّه ليس جائعًا. يمكنه أن يَنْتظر إلى الصباح من دون أن يجوع. ثم قال: وإنْ شعرتُ بالجوع فلديّ الخبزُ، يمكن أن أتناوله حافًا.

عاد يطوي نفسَه تحت البطّانيّات، ويضع رأسَه فوق حذائه لينام. لم يعرفْ كم من الوقت مضى عندما استيقظ. كان رأسُه يؤلمه بشدّة في المكان الذي وضعه على الحذاء، لصلابة نعله. ها هي المشكلة تتجدّد مرّةً أخرى. كيف يمكنه أن يجد الحلّ؟

كان ضوءُ المصباح المعلّق في الممرّ، خارج المنفردة، أمام النافذة المشبّكة بقضبان حديديّة غليظة، يُلقي بضوء شاحب إلى الداخل، أو بصورة أدقّ على الجزء الواقع بالقرب من الباب؛ ومنه يمتدّ الضوءُ إلى منتصف المنفردة، ليرسمَ تموُّجاتٍ غامقةً وكاشفةً على البطّانيّات.

وقع نظرُه على كيس النايلون الرقيق الشفّاف الذي أعطوه إيّاه ليَحْفظ به أرغفةَ الخبز الأربعة من الجفاف واليباس. قالوا له: «هذه الأرغفة هي حصّتكَ لكامل اليوم.» وكانت ماتزال ليّنةً، فطوى كلَّ رغيف نصفين فأصبح أشبهَ بنصف قمر، ثم رتّبها بعضَها فوق بعض وأَدْخلها في كيس النايلون الرقيق: ها قد وجد أمامه وسادة، أو ما يُشْبه وسادةً صغيرةً كتلك التي تُصنع للأطفال الحديثي الولادة. ابتَسَمَ. مدّ يده إلى الكيس، تناوله، ثم قلّبه بين أصابعه. نعم، إنّه أشبه بوسادة صغيرة.

رفع حذاءه ووضعه جانبًا. ثم وضع الكيسَ الذي يُشْبه نصفَ قمر مكان حذائه.

شعر بشيء من الراحة عندما وضع رأسَه فوق الكيس. ولكنّه كان واطئًا. فعادت الأوجاعُ تغزو رقبتَه من جديد.

جلس على بطّانيّاته، وراح يفكّر في الحلّ. وما لبث أن قال لنفسه: الحلّ أمامك. كيف؟ أنت تتساءل كيف؟ إنْ كنتَ تريد أن تنام هذه الليلة، أيْ ترتاح، وأن تكون في مزاجٍ طيّب عندما تستيقظ في الغد، فما عليك إلاّ أن تفعل كما تفكّر بالضبط، وهو أن تضع كيسَ الخبز الطريّ الليّن فوق حذائك، بحيث تَرفع وسادتَكَ، لتستطيع أن تنام.

حوّل عينيْه عن الحذاء، وقال: لا... لا يمكن... إنّه نعمة اللّه.. لا يمكن أن يوضع في مقام الحذاء! إنّه فعل غير أخلاقيّ، هذا إنْ لم أقلّ إنّه فعلُ إبليس يُريد أن تقوم أنتَ به. إبليس؟ وما دَخْلُ إبليس في هذا الأمر؟ ألا تريد أن تنام هذه الليلة؟ إذن، عليكَ أن تضع حذاءك على بلاط المنفردة، وتضع فوقَه كيسَ الخبز، ثم تضع رأسَكَ فوق هذه الوسادة وتنام حتى الصباح.

ظل يتردّد. لم يَقْدر على فعل هذا الأمر. لا يمكنه أن يَجْمع الخبزَ والحذاءَ معًا. لا يمكن.

وهنا لاح له وجهُ جدّه، بقامته المربوعة وابتسامته الساخرة. جلس إلى جانبه ومدّ يده ولفّه بها، ثم شدّه إلى صدره وقال له: «اسمعْ يا بنيّ هذه الحكاية التي يتناقلها أبناءُ قريتنا أبًا عن جدّ. وهي حكاية يُضْرب بها المثلُ في حالة واحدة، وهي حالة تمجيد الحياة وتقديمها على كل شيء.»

◆ ◆ ◆

قال الجدّ:

يقال إنّ ناسكًا اتَّخَذَ من معبد صغير في أطراف إحدى القرى مكانًا لزهده وتعبُّده. وكان سكّانُ هذه القرية يحيطون هذا المعبدَ بكلّ رعاية وتقديس. وكانوا يقدّمون لهذا الناسك الغريب، الذي لم يَعْرف أحدٌ من أين جاء، الطعامَ والشرابَ. إلاّ أنّه كان لا يصيب من الطعام سوى الخبز الحاف، وبعضِ الجرعات من الماء، ليعود إلى تعبُّده في زهدٍ بالغ. فاكتفى أهلُ القرية بتقديم الخبز والماء إليه.

لا أحد يَعْرف متى جرت وشوشةٌ وهمسٌ بين بعض شباب القرية بأنّ الناسك متشرّد وكسول وخامل، وجَدَ في هذا المعبد مكانًا للإقامة، وفي أهل القرية البلهاء مطعمًا يقتات منه دون أن يَدْفع مالاً. فقرّروا أن يقوموا بامتحانه. فوضعوا الخبزَ في مكانٍ عالٍ بحيث لا يستطيع الوصولَ إليه إنْ لم يستعِنْ بشيء.

ومضى اليوم الأول دون أن يصيب الناسكُ من الخبز لقمةً، بل اكتفى بشرب الماء، وعاد يقرأ في صحفه المقدّسة.

ومضى اليوم الثاني والناسكُ على حاله، يَشْرب الماءَ فقط. إلاّ أنّه أحسّ بقرص الجوع المؤلم في معدته، ولكنّه ظلّ يقرأ في صحفه. أمّا في اليوم الثالث فقد شَعَرَ بجوع شديد وألم كبير، بحيث باتت الكلماتُ في صحفه غير واضحة. وراحت تزوغ أمام عينيه. قام يدور في أركان المعبد يريد أن يجد شيئًا يقف فوقه ليتناول الخبزَ من المكان العالي الذي وضعه الشبابُ فيه. إلاّ أنّه لم يجد شيئًا. فعاد إلى جلوسه أمام صحفه يطالع فيها ويقرأ.

في اليوم الرابع أصابه الوهنُ، وزاغت الكلماتُ تمامًا من عينيه، فعجز عن متابعة القراءة.

ترك الصحفَ وأَسند ظهرَه الى حائط المعبد يطلب من ربّه الوحيَ ليحلّ المشكلة التي وجد نفسَه فيها.

تناهى إلى سمعه صوتٌ غريبٌ يقول له: «أمامَكَ الصحف السميكة.» لم يستوعب الناسك معنى الكلام أول الأمر.

عاد يطلب من ربّه الحلّ.

تناهى إليه مرّةً أخرى صوتٌ يقول له: «أمامَكَ الصحف. إنّها سميكة. يمكنك أن تدوس عليها كي تصل إلى الخبز!»

انتفض الناسكُ رغم هزاله وضعفه بعد أربعة أيام من الجوع. انتفض رعبًا واستنكارًا، وظنّ أنّ إبليس يوسوس له بهذا الكلام. فأغمض عينيه ولوى رقبته النحيلة باتّجاه اليمين، وهو يتمتم بكلام يستغفر فيه ربّه.

تناهى إليه صوت يقول له من جديد: «افتحْ عينيك.»

فتح الناسكُ عينيه، فوجد أمامه شيخًا جليلاً بثياب بيضاء وجناحيْن نورانيّيْن عريضيْن يحطّ بأحدهما جهةَ الشرق وبالآخر جهةَ الغرب، وهو يأمره أن يقومَ ويأخذَ صحفَه السميكةَ ويضعَها بعضها فوق بعض ويرتقيَها بقدميه ليُنزلَ الخبزَ من الأعلى.

قام الناسك وهو يرتجف. فعل ما أمره به الشيخُ. وكان مايزال واقفًا أمامه.

قال له الشيخ: «اجلسْ، وكُلْ ملءَ معدتك.»

وهذا ما فعله الناسكُ، يا بنيّ، فاستعاد قوتَه، وعادت الرؤيةُ واضحةً إلى عينيْه. حَمَدَ اللّهَ بعد أن تناول شربةَ ماء وبلّل شفتيْه، وانتظر ما يأمره به الشيخ الجليل.

قال له الشيخ: «لم توجد هذه الصحفُ إلاّ كي تحمي روحَ الإنسان من الفساد. ولم توجد الأطعمةُ إلاّ لتحمي جسدَه من التلف. ولولا هذا الجسد لما كانت الروح، ولولا الجسدُ والروحُ لما كانت الحياة التي وهبها اللّهُ تعالى لك أيُّها العبد.»

◆ ◆ ◆

اختفى الشيخ... واختفى جدُّه. فما كان منه إلاّ أن وضع كيسَ الخبز فوق حذائه، ووضع رأسه فوقه ونام.

حلب